قصة العربية مع المنظومة التربوية الجزائرية

د. سالم علوي.

أستاذ بجامعة الجزائر.

I- اللغة العربية والهوية الوطنية:

ظلت اللغة العربية طوال فترة الاحتلال الفرنسي هاجسا قوميا لكل الجزائريين، لأنهم يعدون ابتزاز اللسان القومي للأمة كارثة لا تقل عن ابتزاز الأراضي والأموال والأعراض، إن اللسان يعتبر المقوم الأساسي لكل شعب من الشعوب البشرية، يستوي في هذا المقام الطفل الصغير والشيخ الكبير والأم والأب، وكل الفئات دون تمييز بين عالم وجاهل.

كيف لا يكون هذا مقامه والقرآن الكريم قد جعل اختلاف الألسن آية من آياته الكبرى، فقال ﷻ: ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾(الروم، الآية22)، فالشعب الجزائري تمسك بالعربية منذ أن بزغ فجر الإسلام على هذه الربوع الطيبة، واستنشق أريجه من آي الذكر الحكيم الذي نزل بلسان عربي مبين، فكانت العربية حاضرة في المأكل والمشرب والقيام والقعود، والبيع والشراء، والسوق والمسجد. فباسم الله يبدؤون مكاتباتهم وعقودهم وتناول أطعمتهم، وعلى بركة الله يسافرون ويغزون، ويرحلون ويحجون، وبحمد الله ينتهون ويختمون، هكذا كان مبدأهم باسم الله ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ (يونس.الآية10).

إن الأمر اللافت للنظر هو أن العربية كانت مطلبا وطنيا وشعبيا لدى كل الهيئات الوطنية والحركات السياسية والعلمية، فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي اضطلعت بالتعليم العربي الحر في الجزائر اتخذت شعارا ثلاثيا

هو:العربية لغتنا، والجزائر وطننا، والإسلام ديننا. وليست الأحزاب السياسية بأقلّ مطلبا من جمعية العلماء، فاللغة العربية نجدها في برنامج كلّ الأحزاب السياسية الجزائرية، وهو إجماع لا نظير له في المطالب الأخرى التي تسعى إلى تحقيقها الأحزاب الوطنية لكن بكيفيات مختلفة إلا في اللغة العربية. إذ لكلّ حزب نظرته الخاصّة في الوصول إلى الاستقلال.

فإذا نظرنا بموضوعيّة علميّة إلى حركة نجم الشمال الإفريقي، وهي أوّل حركة سياسية وطنية منظّمة لوجدناها سجّلت في مشروعها الأساسي المطالبة بالاعتراف باللغة العربية كمطلب أساسي في مشروعها السياسي، ولا بأس أن نثبت بعض النقاط منه:

"1- الاستقلال التّام للجزائر.

2- الجلاء التام لجيش الاحتلال.

3- حكومة وطنية ثورية بكلّ مجالسها.

4- مصادرة الملكيات الكبرى المغتصبة من طرق الإقطاعيين.

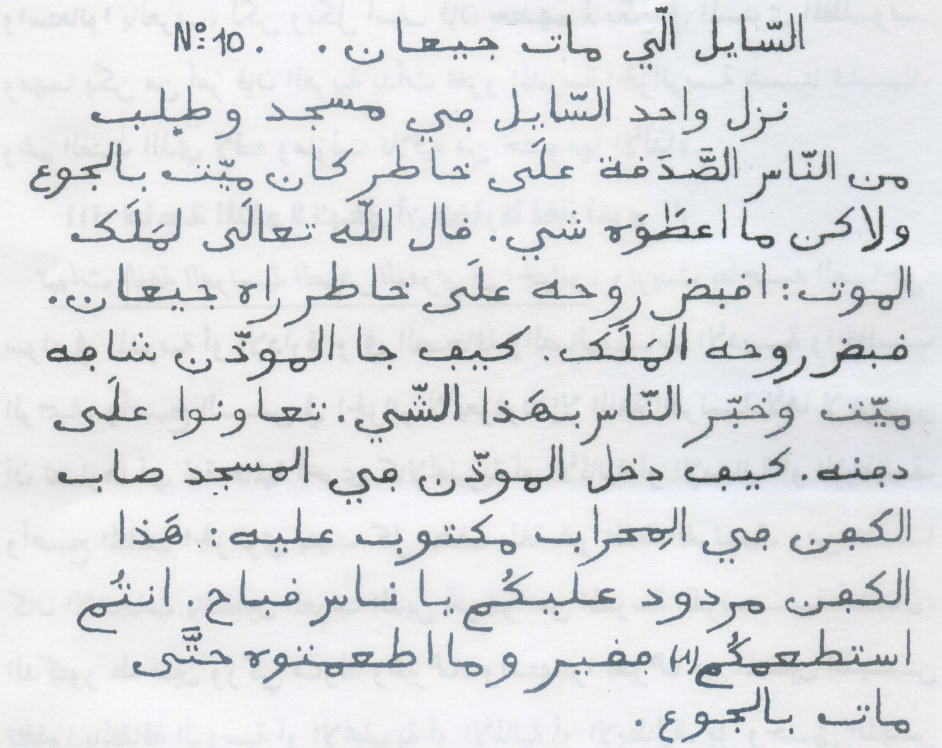
5- التعليم المجّاني والإجباريّ باللغة العربية في جميع المستويات"[1].

هذه هي مطالب نجم الشمال الإفريقي منذ 1926. فأين نحن الآن بعد أربعين سنة من الاستقلال؟!.

II-إشكالية إدماج العربية في برنامج المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال :

أكبر مشكلة اعترضت اللغة العربية بعد الاستقلال هي كيفية تعريب المدرسة الجزائرية، حيث كانت في عهد الاستعمار الفرنسي فرنسية من ألفها إلى يائها،

فلا مكان للعربية فيها، وإنما هناك ما يسمى باللهجة العربية لبعض السنوات، وفي بعض المدارس الخاصة على أنها اللغة الثانية، وأقسم بعض أصحاب القرار أن لا يسمحوا بتعريب المدرسة الجزائرية النظيفة والحديثة، لكنهم يسمحون بإدخال بعض الدروس المكملة وفق الكتب المقررة في العهد الاستعماري. وهذا نموذج من هذه الكتب[2]:


السّايل الّي مات جيعان . N°10

نزل واحد السّايل مي مسجد وطلب من النّاس الصّدقة علَى خاطر كان ميّت بالجوع ولاكن ما اعطَوه شي. قال اللّه تعالَى لهَلَك الموت: اقبض روحه علَى خاطر راه جيعان. قبض روحه الهَلَك. كيف جا الموذّن شافه ميّت وخبّر النّاس بهَذا الشّي. تعاونوا علَى دفنه. كيف دخل الموذّن مي المسجد صاب الكفن مي المحراب مكتوب عليه: هَذا الكفن مردود عليكُم يا ناس فباح. انتُم استطعمكُم مفير وما اطعمتوه حتّى مات بالجوع.

هذا هو حال العربية في الجزائر الموروثة عن عهد الاستعمار، يضاف إليه قلة المؤطرين بالعربية من الجزائريين الذين لم يسعفهم الحظ أن يتكونوا تكوينا تربويا وعلميا، إذ أغلب الذين تزودوا بالثقافة العربية جاءوا من الدول

العربية الشقيقة، وهم قلة قليلة، بيد أن الإرادة الفولاذية التي يتمتعون بها جعلتهم يتحدون الصعاب ويركبون الخطوب في كل الميادين: في الصحافة والإذاعة والتفزة والتعليم، وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم أن يخدموا هذه اللغة إيمانا واحتسابا لا يبغون من وراء ذلك لا مالا ولا أجرا، وإنما تحقيقا لرغبة الشهداء الذين لاقوا ربهم وهم يرددون "الله أكبر" بلسان عربي مبين، واستعانوا بالعرب، لكن وبكل أسف فإن بعضهم لم يكن في المستوى المطلوب. ومهما يكن من أمر فإن العربية بدأت تغزو المدرسة الجزائرية شيئا فشيئا، رغم العنت الذي لاقته ومازلت تلاقيه من خصومها الألدّاء.

III-صاحبة التاج لا تبغي أن تضارها لغة أخرى !!.

تبوأت اللغة الفرنسية العرش اللغوي في الجزائر، وتزينت بتاجه العاجي، سواء في المدرسة أو الإدارة أو في الصحافة والصالونات الأدبية والخطب الرسمية، وأصبح الناس في الجزائر لا يعرفون إلا اللغة الفرنسية لأنها لا ترضى أن تضارها أي لغة عالمية أخرى كالإنجليزية أو الألمانية أو الإسبانية أو الإيطالية، وأصبح المثقف الجزائري يعيب كل مثقف بلغة غير اللغة الفرنسية، ومن هنا كان الإعجاب بالمثقفين العرب الذين تخرجوا من المدرسة الفرنسية أمثال: الدكتور طه سين وزكي مبارك وغيرهما، واستهانوا بغيرهما من المثقفين الذين تثقفوا بالثقافة الروسية أو الإنجليزية أو الألمانية أو الإيطالية، بل وحتى الذين تثقفوا باللغة العربية، ومن هنا تكونت فكرة النخبة. ويعنون بها الفئة الجزائرية التي تعلمت اللغة الفرنسية وانفصمت عن بقية الشعب الذي ظل وفيا للعربية لأنها لغة القرآن الذي علمهم الأخلاق الفاضلة ودعاهم إلى التعاون فيما بينهم

وإلى فعل الخير والابتعاد عن الشر والظلم، وظل الرجل البسيط إذا وجد ورقة مكتوبة بالحرف العربي أخذها ووضعها في مكان حصين أو في خَصَاصِ الحيطان حتى لا تطأها الأقدام لأنها مكتوبة بالحرف العربي أما ما هو مكتوب بالحرف اللاتيني فلا يبالي به حيث وضع وأين ذهب.

IV-موقف أصحاب القرار في الجزائر من اللغة العربية بعد الاستقلال:

ليس من السهل أن يتخلى أصحاب القرار عن اللغة الفرنسية التي تعلموها في المدارس والثانويات والجامعات لوجودها في كل المرافق الإدارية إذ كلُّ الوثائق مطبوعة بالحرف اللاتيني في البلديات وفي مصالح الغاز والكهرباء وفي الثكنات العسكرية وفي مراكز الشرطة ومصالح الضرائب والجمارك وفي المدارس وفي غير ما ذكر، لهذا لم يستسيغوا مفهوم التعريب الذي تنادي به الفئات الشعبية بمختلف هيئاتها فتحرجوا من هذه النقلة وتذرعوا بأن أوضاعنا تختلف كل الاختلاف عن أوضاع جارتَيْنَا (تونس والمغرب) المشاركتَيْن لنا في الاستعمار الواحد، لأنهم ما فقدوا شخصيتهم العربية ولأن وضعيتهم لم تكن إدماجا مثل الجزائر، بل كانت حماية، حيث ظل جامع الزيتونة يؤدي رسالته بالعربية، والقرويين في المملكة المغربية كذلك ظل يؤدي نفس الوظيفة، وطالبوا بالتعقل والتفتح، وقالوا: إن اللغة العربية ستتبوأ مكانتها شيئا فشيئا في الجزائر لا محالة لكن ويا للأسف!...

إن هذا التذرع أدى إلى نتائج سيئة للغاية حيث تمكنت اللغة الفرنسية أكثر فأكثر لأنها لغة الحياة والوظيفة السامية والمقعد الممتاز. فكم من مثقف بغير

الفرنسية تكوّن في روسيا أو حتى في أمريكا ظل بغير وظيفة بعد عودته حاملا دبلوما عاليا في الاقتصاد أو الإلكترونيك أو في الفيزياء أو في الذرة وأو في غيرها من العلوم المتطورة.

أما الذي يحسن اللغة الفرنسية فإنه يعمل ويوظف بها رغم تكونه باللغة الإنجليزية التي نالت حظا كبيرا في العالم بأسره وكادت تكون اللغة المشتركة والجامعة بين الشعوب إلا في الجزائر.

لم يتخلّ المجتمع الجزائري عن استعمال اللغة العربية قط طوال فترة الاحتلال الفرنسي، فكان يتعامل بها في كل المواصفات اليومية يحلم بها في نومه ويروى قصصه وأحاجيه بها، ويظهر الاستعمال جليا في الأفراح والأتراح والبيوع والديون والسلف والأسماء والألقاب. واللغة التي يتعامل بها المجتمع الجزائري هي لغة عربية دارجة تقترت من العربية الفصحى في البوادي والأرياف وتهبط إلى درجة سفلى في المدن الكبرى ذات الجالية الأجنبية التي يتأثر أصحابها بما يدور من أحاديث تتداخل فيها اللغات، وإلى جانب اللغة الدارجة المشتركة بين الأهالي كلهم، توجد اللهجات الأمازيغية كالقبائلية والشاوية والترقية والميزابية التي يعتز الناطقون بها ويتخذونها من الأسرار التي تُعينهم على قضاء حوائجهم ومآربهم التي يريدون إخفاءها على غير الناطقين بها. أما المعاملات العامة كالصلاة والزكاة والأذان والحج والصيام فيعبرون عنها بلسان عربي مشترك بين الأهالي كلهم، وهو اللسان العربي.

هذا وقد ظهرت فئة تعلمت "الرومية" وشغلت مناصب إدارية أهلية غالبا ما يطلقون عليها "بيرو عرب *Bureau arabe*" تتولى الترجمة عن الأهالي الذين لا

يحسنون "الرومية " واللافت للنظر أن مصطلح "الفرنسية" لم يكن ساري المفعول في الأوساط الشعبية وإنما يوجد مصطلح "اللغة الرومية" و"الرومي" للذكر ومؤنثة "رومية" فكل الذين ينطقون بغير العربية إنما هم "رومانيون"وفي هذا إشارة إلى عهد الرومان والعرب، كل هذا كان حاصلا قبل الاستقلال لأن فيه جانبا من التحدي في اللباس واللسان والعادات والأعراف، بل حتى الذين يعرفون الرومية يفضلون الكلام بالعربية ويرددون "من تعلم لغة قوم أمِنَ مكرَهم أو شرَّهم" عليه فتعلُّم "الرومية" كان وسيلة ولم يكن غاية لكن بعد الاستقلال تعاظم الأمر، وانقلبت الأوضاع واشتهر مصطلح "الفرنسية"وأقبل الناس عليها بشغف لما رأوا التمايز بين اللغتين في التوظيف والتكليف فأقبل الناس على تنشئة أبنائهم على تعلم اللغة الفرنسية، إن استطاعوا إليها سبيلا، فكان الزحام في الأقسام (المزدوجة اللغة)وأعرضوا عن الأقسام المعربة لأنها لا تقدم لهم ما يبتغون.

VI- كيف نبني منظومة تربوية جزائرية عالمية؟:

إن التربية هي مصطلح علمي يعني في الأصل اللغوي العربي النمو والزيادة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[3].

فالأرض تزدان بنزول الغيث وتزداد بهجة ونموا، جاء في معجم ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني "رب: الرّبُّ في الأصل: التربية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام: يقال: ربَّهُ ورباه وربّبهُ"[4].



هذا المصطلح أخذ في الترقي والنمو حتى أصبح علما تعتمده الأمم الراقية في تنمية معارفها وتوجيهها الوجهة الحسنة، ليستقيم نظامها وتسمو مكارمها في مختلف المستويات السياسية والعسكرية والأخلاقية والاجتماعية والتعليمية، وأكثر الأمم اليوم تقدما هي التي تبني استراتيجية تربوية نابعة من أصالتها وديانتها وتاريخها وثقافتها مراعية في ذلك روح التطور والارتقاء وفق المعطيات الحضارية، فما أجدر الأمة العربية الإسلامية، ومن بينها الجزائر، أن تستقبل القرن الواحد والعشرين الميلادي بمذهب تربوي إسلامي نابع من أصالتها وتاريخها الحضاري العريق ! إذن التربية علم لا يقتصر على المكتوب فحسب، بل هو مستنبط من التجربة والطبيعة والبيئة الاجتماعية، لذا ارتأينا أن يكون المذهب الذي ندعو إليه مؤسسا على نوعين من التربية:

1- التربية العفوية غير المقصودة.

2- التربية المقصودة.

أولا: التربية العفوية غير المقصودة.

ما ذكرت التربية إلا وارتسمت في نفوسنا صورة ذهنية للمدرسة لأنها من أهم العوامل المقصودة من التربية المباشرة والتعليم، والحقيقة أن عملية التربية والتكوين أعم وأشمل من المدرسة إذ ليس كل الناس وفرت لهم ظروفهم حظا من التعليم المدرسي فالتربية في الإسلام تبدأ مبكرة، فكل مولود يولد على الفطرة، ووالداه هما اللذان يرعيانه الرعاية التي تتكافأ ومراحل نموه الجسمي من البصبصة والنغنغة إلى الابتسامة المعبرة والقهقهة البريئة حتى تتكامل قواه

السمعية والبصرية والذوقية: ﴿واللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5]، فهذه العملية الأولى ليست مقصودة لذاتها وإنما يتوارثها الأجيال خَلْفاً عن سلف، فهي مظهر من مظاهر العادات الاجتماعية لأي أمة من الأمم. والمقصود بالمظهر الاجتماعي كل ما يؤثر في حياة المجتمعات من نظم معيشيَّة، اقتصادية كانت أو دينية أو سياسية أو تعليمية إلى أن تتحاماها الهيئات الرسمية التي غالبا ما توجهها الوجهة التي تريدها، وتحاول ما استطاعت أن تصدها عما نشأت عليه ابتغاء تحقيق الأيدلوجيات التي تنتهجها، بَيْدَ أن التعليم في الصغر كما قال ابن خلدون: "أشد رسوخا وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه"[6].

هذه المرحلة غالبا ما يهملها المشرعون المدرسيون وهي الأساس الذي تبنى عليه شخصية الفرد والمجتمع، فالتربية نوعان: داخلية ذاتية وهي الأساس الذي تقوم عليه التربية الصحيحة السليمة، فالأطفال مهيؤون للتكيف بسهولة وسرعة.

ونوع آخر خارجي له تأثير خطير، إذ غالبا ما تبنّي الأسرة أخلاقا فاضلة في البيت يهدمها المحيط الاجتماعي الخارجي في الشارع والسوق وشتى المعاملات، وذلك لأن الغرض من هذه التربية التي نسعى إلى تحقيقها هو تنشئة الفرد من جميع نواحيه العقلية والخلقية والجسمية وتعزيز تعامله مع الآخرين لا لمهمة خاصة وإيديولوجية موجهة ولكن ليكون مواطنا صالحا مفيدا لمجتمعه قادرا على

أداء واجبه العام في محيطه الإسلامي العربي.

وَمْهَمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[7].

وأن يكون ظاهره كباطنه يعلم أن الله معه في كل حال:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[8] وهذا ما اصطلح عليه في عصرنا الحاضر بالضمير الخلقي، وهو مصطلح ساد وأفاد لمن لا يعرف ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[9].

"الدين المعاملة".. كل هذه العوامل أخفى عليها الذي "أَخْفَى عَلَى لَبَد" لذا يتوجب علينا بعثُها من جديد، ونشرُ فضائلها حتى تكتمل التربية لدى الراعي في رعيته والأبناء مع أبيهم والجار مع جيرانه والتاجر مع زبنائه في المدن والقرى، في الأسواق والمساجد مارسوا التعلم في الكتاتيب والمدارس أم لم يمارسوه، وبهذه الطريقة تنعم النفوس البشرية وتتطلع إلى الفضائل الكريمة، والأخلاق الحميدة التي تترسخ في ذواتهم لتكون جبلَّة تتنامى بعفوية خلقية يتضوع شذاها بالخير والسعادة والأخوة.

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

هكذا ينشأ الأفراد متعاونين على البر والتقوى، متجافين عن الإثم والعدوان:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[10].

وعلى هذا الأساس فإن التربية غير المقصودة التي تنشأ من أخلاق الأمم والشعوب أهم من التربية المفروضة على الأفراد والمجتمعات، وتُرْسَمُ بالقهر في المدارس والمقررات، لأنها غالبا ما تكون مستوردة من عادات أقوام وأمم أخرى لا تنسجم أخلاقهم وأخلاق الأمم التي نُشِّئَت نشأة إسلامية واتخذت من فعل الخير سجية لها ومركبا، والابتعاد عن فعل الشر نشازا ومهربًا، وتكاد هذه التربية تكون عاملا مشتركا بين المجتمعات الإسلامية شرقا وغربا، يلمسها الفرد أينما حل وارتحل، وهي تربية متطورة ومتفتحة تنمو بنموّ المجتمعات وتتشكل بأشكال كل عصر ومصر، فلا تنال منها الأيام شيئا ولا يدركها الفناء، تتوارثها الأجيال الجيلُ بعد الجيل.

وتتسامى هذه التربية في المجتمعات البدائية وما هي بالبدائية، إنها تربية عفوية يُنَشِّئُونَ عليها أبناءهم، فيغرسون في نفوسهم حب الخير وكراهية الشر، وحب الشجاعة وكراهية الجبن، ويُحَبِّبون إليهم الفروسية والصدق في الحديث، ومساعدة الضعفاء والعطف على المظلومين والحياء والإقدام والعفو، والصبر في السراء والضراء. يقول عبد العزيز عبد المجيد:"وهل نقول:إن هذه التربية غير المدرسية كانت خلوا من غرض وهدف؟ .. لقد كان العرب في جاهليتهم لا يعرفون المدارس ومع هذا فقد كانت لهم ثقافتهم، وعلومهم وحضارتهم وآدابهم التي وصلت إلينا، فهل يقال:إن التربية لم تعرف عند عرب الجاهلية لعدم ظهور



المدارس عندهم أو نَقول:إن التربية قد وُجدتْ، وإن القوم كانوا يربون أبناءهم، وكان الكبار منهم –حين يربون الصغار– يرمون إلى هدف، قد يكون واضحا في أذهانهم، وقد يكون غير واضح، وقد يكون هدفا يحقق المثل الأعلى للقبيلة أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، أو يحقق المثل الأعلى عند الوالدين فقط كلاهما ممكن! وما يجب أن نستنبطه هو أن التربية وجدت بوجود الإنسان"[11].

ثانيا: التربية الموجهة و المقصودة.

هذا النوع من التربية هو خلاصة أفكار الفلاسفة والمصلحين والمشرعين المدرسيين، وهو قديم نشأ في خضم الحضارات الإنسانية المتعاقبة، وغاياتُه التربوية الكبرى لا تتحقق في الغالب لأنها تتجاوز الطاقات الاجتماعية العامة واتخذت من المجالس والندوات طريقة لبث الأفكار التربوية إلى أن تحامتها المدرسة والمسجد والمعبد، وهي في مجملها تخضع لسلطة هيئات تنظمها وتشرف عليها، كالحكومات ورجال الكنيسة عند غير المسلمين وكبار القوم من العلماء والفقهاء والمفسّرين وأولي الأمر عند المسلمين، ولكل هيئة من هذه الهيئات طريقتها الخاصة، ونفوذها الخاص في تكييف مناهج التربية وأساليبها وأهدافها.

وسلكت مسالك مختلفة ففي الصين، كان غرض التربية "إعداد القادة بتزويدهم بالمعارف القديمة التي تتصل بنظام المجتمع وصلات أفراده بعضهم ببعض، وإعداد كل أفراد الشعب ليكون سلوكهم حسنا في جميع أعمالهم، وفي جميع ما يزاولونه في حياتهم"[12].

وفي مصر القديمة "كانت التربية مقصورة على إعداد طبقة الارستقراط من الكهنة، وفيهم القضاة والأطباء و المهندسون والكتاب، وجباة الضرائب والجنود"[13].

أما عند اليونانيين فقد ازدهرت الثقافة بصفة عامة والفلسفة التربوية بصفة خاصة،"ففي (أثينا) كان الغرض من التربية إعداد الفرد لذاته ليصل إلى درجة الكمال، ويشمل هذا الغرض القدرة على ضبط النفس والاعتدال في السلوك واتزان القوى الجسمية والعقلية وانسجام الخلق وجماله قولا وعملا"[14]، مما جعل برتراند رسل يقول:

"إن التربية الصينية التقليدية كانت كبيرة الشبه من بعض النواحي بنظيرتها في "أثينا" في أعز أيامها؛ كان الصبية الأثينيون يُحملون على حفظ "هومر" عن ظهر قلب من أوله إلى آخره، وكذلك كان الصبية الصينيون يُحملون على حفظ المأثورات الكنفوشية، وكان الأثينيون يعلمون -أبناءهم - نوعا من احترام الآلهة، يقوم على المحافظة على المظاهر ولا يضع حاجزا في طريق الفكر الحر، وكذلك كان الصينيون يقيمون طقوسا خاصة تتصل بتقديس الأسلاف".

أما الكنيسة الكاثوليكية، فقد كانت تعمل على إماتة الشهوات وإهمال الجسم، حتى تتنقى الروح وتنجو من عذاب جهنم، ووسيلة ذلك الطهارة والفقر والطاعة"[15].

إن هذه الأنماط من التربية عند الأمم غير الإسلامية مفيدة وصالحة، غير أنها قاصرة عن أداء المثل العليا التي جاء بها الإسلام والتي تدعو إلى تكريم النوع الآدمي:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[16].

- التربية الإسلامية:

كان العرب في جاهليتهم ينشّئون أبناءهم تنشئة تتلاءم وحياتهم الاجتماعية التي تجعل الفرد يذوب في القبيلة التي ينتمي إليها، فلما جاء الإسلام جبَّ ما قبله من تربية تعتمد الحمية الجاهلية وجعل الناس أمة واحدة فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[17]. فانتقل المجتمع العربي من الترعة الضيقة إلى الفسحة الإسلامية الواسعة.

فالإسلام انطلق من الطفولة البريئة التي تقبل التكيف مع المحيط الاجتماعي فقال عليه الصلاة والسلام: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" إذاً فالطفل عجينة لينة إذا أقمتها استقامت وإذا عوجتها اعوجت فكانت الحياة الزوجية منبع الأطفال مأوى للمودة والرحمة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[18].

وعلى هذا الأساسي الثلاثي: الوالد والوالدة والمولود تقوم التربية الإسلامية التي تلائم بين مطالب الجسم والروح يقول الله ﷻ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي

الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[19].

فالتربية الإسلامية راعت كل النزعات البشرية جميعها مبتدئة بتحرير النفس الإنسانية من قيود الرق والعبودية لغير الله والإحسان ثانيا إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجيران. قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[20].

إن التربية الإسلامية أوسع مما يتصور المربون الذين يحصرونها في العملية التعليمية فحسب، ومن هنا نرى أن نؤسس التربية الجزائرية على المقومات الأساسية التي نشأ عليها المجتمع الجزائري المسلم وذلك بالأصالة لا بالمحاكاة والتقليد، وعلى هذا الأساس يحسن بنا أن نتلمس العلاج من واقعنا الحاضر وفق تجربتنا الخاصة، فنهتم بالنقاط التالية:

1-الاهتمام بالتكوين العلمي للمربين، مراعين في هذا الأوضاع المادية والأدبية، مهيئين لهم السكن والمواصلات والكتاب ذا البرنامج الصالح، وكذا التخفيف من تزاحم الأولاد في الأقسام إلى غير ذلك.

2- مراعين الظروف الاجتماعية للمتعلمين أطفال المدارس الابتدائية والثانوية وكذا شباب الجامعات، وتتم هذه الرعاية بتقديم المساعدات للمعوزين منهم من لدن جمعيات أولياء التلاميذ والمؤسسات الكبرى.

3- إسناد إصلاح المنظومة التربوية إلى القادرين على ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والعاجز عنه لا يوفيه. إذ كيف يرجّى الإصلاح من ناس لم يباشروا التعليم قطّ أن يتمكّنوا من إصلاحه.

4- الحدّ من غلواء اللغة الفرنسية وتعويضها باللغة الإنجليزية التي هي لغة عالمية، وبالتالي نتخلّص من عقدة النقص إذ تعلّم اللغة الفرنسية يجعلنا دائما نشعر بأنها لغة الحاكم الممتاز والمستعمر لنا حقبة من الزمن فهو أرقى منا حضارة.

5- التشجيع على فتح المعاهد المتخصّصة في تعليم العلوم العربية، كما كان الحال في التعليم الأصليّ التابع لوزارة الشؤون الدينية في عهد الأستاذ مولود قاسم رحمه الله.

الهوامش

1- عمار نجار. مصالي الحاج الزعيم المفترى عليه. دار الحكمة. الجزائر. 2000م. ص50.

2- Pqul Mangion:Cent textes d'arabe dialectral algerien,p13, editions Bacnnier. Alger.

3- سورة الحج، الآية 05.

4- الراغب الأصفهاني. معجم ألفاظ القرآن، دار الكتب. بيروت. ص 189.

5- سورة النحل، الآية 78.

6- ابن خلدون: المقدمة. ج4، ص1354، تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي. سنة 1388هـ-1968م، الطبعة 2.

7- زهير بن أبي سلمى: "المعلقات".

8- سورة المجادلة، الآية 7.

9- سورة "ق"، الآية 4.

10- سورة المائدة، الآية2.

11- عبد العزيز عبد المجيد: "التربية وطرق التدريس"، دار المعارف. 1963. مصر. ج1. ص 28.

12- المرجع نفسه. ص33.

13- المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

14- نفس المرجع السابق، ص33 -34.

15- المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

16- سورة الإسراء، الآية 70.

17- سورة الأنبياء ، الآية 92 .

18- سورة الروم ، الآية 21.

19- سورة القصص، الآية 77.

20- سورة النساء، الآية 36.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

"سورة البقرة، الآية 32"